

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

- ١ -

لم تكن النقائض معروفة في البيئات العلمية معرفة صحيحة إلى أوائل القرن العشرين حين أخذ الأستاذ أنتوني أشلي بيثان Anthony Ashley Bevan ينشر نقائض جرير والفرزدق (١٩٠٥ - ١٩١٢ م) وحين تبعه الأب أنطون صالحاني اليسوعي فنشر نقائض جرير والأخطل سنة ١٩٢٢ م ، وكل ما كان يعرف من النقائض هو ما كان وارداً في بعض الدواوين أو المراجع الأدبية العامة ، فكان نشر هذين الديوانين نعمة كبرى على الدراسات الأدبية في الشرق العربي .

ومع ذلك ، لم تلق نقائض هؤلاء الفحول بمصر أو غيرها العناية التي تستأهلها ، وسارت الدراسة في المعاهد العلمية سيرتها المألوفة من تلخيص النظريات التاريخية ونقل الآراء والملاحظات النقدية دون تدقيق واستقصاء.

فلما دعيت للتدريس بكلية الآداب بالجامعة المصرية سنة ثلاثين وتسعمائة وألف ، على ما أذكر ، كان الأستاذ الدكتور طه حسين يدرس نقائض جرير وصاحبيه مع طلاب قسم اللغة العربية دراسة تاريخية أدبية قيمة ، ويسلك في ذلك مسلكاً علمياً ممتازاً ، ويشرك معه الطلاب في البحث ، فكانت دراسته هذه فذة معاهد مصر والبلاد العربية جميعاً .

لما ترك الجامعة بعد ذلك بقليل ، تابعتُ هذه الدراسة مع الطلاب في فترات متفرقة ، تبعاً لنظام القسم وجداوله الدراسية ، وتعلقاً بهذا الفن الخطير ، على ما يستوجب من الجهد ، والأناة ، وسعة الأفق ، ويشمر بذلك ثماراً عظيمة ، بعيدة الاثر في تاريخ الأدب العربي ، ونقده ، ومقوماته .

وكنت أشعر بما يحتمل الطلاب من مشاق في هذا الدرس مع إدراكهم جليل خطره ، وعظيم أثره ، لما يلقاهم به من غريب اللغة . والعبارات ، والصور ، وما يقتضيه من ثقافة متنوعة عميقة حتى يفقهوا أدباً أنشئ في مكان وزمان بعد بهما العهد ، وكان تعبيراً عن عناصر ، وعوامل ، ومواهب وبيئات خاصة غريبة لا بد من تمثيلها وتعمقها لفقه هذا الأدب ، وتبين مافيه من خصائص موضوعية ، ومعنوية ، وأسلوبية عجيبة ، حتى كانت النقائض مثال الأدب الصعب المحبوب ، وحتى قضيت مع الطلاب شهوراً عدة في دروس تقيضتين ... لها ساعتان كل أسبوع .

ولما فرغت منذ سنتين لدراسة الأدب القديم ، والإسلامي منه خاصة ، بدا لي أن أنشر بعض هذه الدراسة ، فطبعت «تاريخ الشعر السياسي» و وعدت في آخره أن آخذ في تاريخ النقائض ، وهنا ضمنت ملاحظاتي السابقة إلى ما تيسر لي أخيراً فكان منها هذه الفصول التي أقدمها للقراء .

ولم يكن من الطبعي أن يظهر التاريخ الأدبي على فن النقائض قوياً رائعاً في زمن الأمويين دون أن تكون له مقدمات وسوابق فتحت طرقه . وأعدت أصوله ، ومهدت لاستحالاته ، فرجعت إلى ماضي الشعر العربي في الجاهلية وصدر الإسلام فظفرت منه بحلقتين في هذه السلسلة أو عصرين ممتازين : عصر الجاهلية وعصر البعثة المحمدية ، ووجدت لكل عصر من

الثلاثة طوابع خاصة وأخرى مشتركة بينها جميعاً ، إذ كان تطور الأدب بطيئاً ولا سيما في جانبه الفني ، وعلى هذا الأساس قام المنهج الدراسي لهذا الفن الخطير .

وكان أمامي ، مع ذلك ، طريقان :

أحدهما أن أتبع المذهب الفني الغالب ، وأسأير ابن سلام في طبقاته ، فأضيف فترة البعثة إلى العصر الجاهلي إذ كان التعبير فيها جاهلياً بعامه ، وتكون فترة الأمويين هي عصر النقائص الثاني .

وثانيهما أن أعترف بفترة المخضرمين فأعدها عصرأ مستقلاً من عصور النقائص ، كما صنعت في تاريخ الشعر السيسى ، وكما أشار ابن رشيق في عمدته وهذا الطريق الثاني هو ما اتبعته هنا لامتياز عصر البعثة بتغير موضوعات النقائص ، ومعانيها ، وغايتها ، وبأنه عصر تحول وانتقال ظهر أثره في أسلوب الشعر ما بين جاهلي محافظ ، وآخر مضطرب ، وثالث مبعوث بعدما كان خافتاً هو شعر قريش بمكة خاصة . على أن عصر البعثة امتاز في النقائص بتدخل اليهود ، وتغير مواقف الشعراء بين مكة والمدينة ، وظهور أثر الاسلام في الشعر ، وهذه النهضة التي لا بست الدعوة الاسلامية الجديدة .

ومادام الموضوع جديداً فلا بد فيه من اختلاف وجهة النظر ، ولا بأس بسلوك أحد الطريقتين ما بقي خالياً من الخطأ الأساسي ، قائماً على أصل نافع مقبول .

وبجانب هذا الجانب التاريخي في منهجنا راعيت الجانب الفني أيضاً ، فحاولت بيان الخصائص الفنية لكل عصر من عصور النقائص . وذكرت مزايا الشعراء البارزين في كل عصر وبخاصة فحول الأمويين لما امتازوا به من تمثيل هذا الفن تمثلاً واضحاً ، ونهوضهم به نهوضاً خيل للناس أنهم مبتدعوه وأنهم أربابه الأولون .

وكانت فصول كل باب ، أو كل عصر ، خاضعة في تنسيقها وترتيبها لأقيسة منطقية حسبها تراءى لى ، كالقول فى نشأة النقائض الجاهلية وفنونها ومقوماتها وعناصرها ، وصلاتها بأيام القحطانية ، فأيام العدنانية ، فالحوادث الاجتماعية ثم خواصها الفنية ، ومثل ذلك فى عصر البعثة ، فإذا كان انعصر الأموى زادت الفصول للبحث فى شعراء النقائض ، والوقوف عند نقائض جرير وزميلييه وهى التى دعوتها النقائض الخاصة ، ثم البحث فى قيمة النقائض الأموية وخصائصها الأدبية .

وقد عمدت فى عصرى الجاهلية وصدر الاسلام إلى أن عرض قسماً كبيراً من نصوص النقائض لعدم جمعها فى ديوان خاص مع الإشارة إلى مراجعها ، ولم أعتمد إلى نحو ذلك فى نقائض جرير والفرزدق والأخطل لجمعها فى دواوين مشهورة فاكتفيت منها ببعض الشواهد .

ولما كانت هذه الدراسة جديدة فقد مهدت لها بالتعريف بالنقائض وما يقابلها من فنون أخرى نثراً ونظماً ، وبيان الطرق التى سلكها الشعراء فى نقض المعانى ، واضطرت حينئذ إلى وضع مصطلحات تميز بينها كالقلب ، والموازنة ، والتوجيه ، والتسليم ، والوعيد . ولست ، مع ذلك ، متشبثاً بها ولا مخدوعاً ، فقد يوضع أدق منها إذا لزم ذلك ، ولا مشاحه فى الاصطلاح كما يقول السابقون .

درس النقائض نافع من وجوه : فهو كشف عن فن جديد من فنون الشعر العربى له خطره ، وله شعراؤه ، وله آثاره فى تهذيب النفوس ؛ وهو معونة قيمة فى تاريخ الأدب العربى بعامة والقديم منه بوجه خاص . ودرس النقائض هو فى الواقع درس الشعر العربى القديم فى أرقى صورته ، وأهم فنونه ، وعند أشهر فحولته وخاصة بعد الإسلام ، وبذلك يفيض على العقل ، والشعور

(ز)

والذوق من جلاله وجماله ، وبعد الدارس للحياة في عصور الحضارة العربية الأصيلة والعيش مع رجالها ، وهم يصورونها أدباً رائعاً قوياً ، ويتلاحون في ظلالها خاضعين لعوامل خاصة وعامة ... أليس في ذلك إطالة للعمر ، وتهذيب للنفس ، وترقية للحياة ؟

على أن هناك فنونا من الشعر ثلاثة ظفرت في ظل الأمويين بتجديد قوي ونشاط واضح جعلها أشبه بالفنون المستحدثة ، هي النقائض ، والشعر السياسي ، والعشر الغزلي .

وكان الغزل في الحجاز ، والآخزان في العراق ، وكان الغزل يصور شعور الأفراد ، والنقائض تمثل مواقف القبائل وشخصياتها ، والشعر السياسي يمثل الأحزاب المختلفة . . . هذا هو الغالب العام .

وقد استأثرت النقائض بفحول الشعراء وطبقتهم الأولى ، وتركزت للغزل والساسية شعراء الطبقات الأخرى ، وكان أسلوب النقائض نفخاً جليلاً ، كما كان أسلوب الغزل رقيقاً جميلاً ، وأسلوب السياسة واضحاً مختلف الصفات فكانت هذه الفنون خليقة بالعناية . وقد كنت معتماً تأريخ الغزل في كتاب خاص إتماماً لدراسة هذه الفنون الطاغية على الشعر الأموي . ولكني تركته - ولو إلى حين - لأحد طلاب (الماجستير) الذي أخذ يدرسه مع إشرافي .

- ٤ -

ومهما يكن ما لقيت في هذه الدراسة من عناء ، فإنني معترف من الآن بأن النقائض في حاجة إلى استئناف البحث سواء في جوانبها السياسية ، والاجتماعية ، والفنية ، - أو في ما يلابسها من عوامل ومقومات ،

(ح)

وما استدعت من نقد وشروح ، وأرجو أن يعنى الباحثون بدرس هذا الفن
لعلمهم واجدون فيه من النتائج القيمة الخطيرة كفاء ما يبذلون في سبيلها من
أوقات ومشاق .

أحمد السائب

القاهرة في { ٢٧ من المحرم سنة ١٣٦٥ هـ
اول يناير سنة ١٩٤٦ م